الحالة الاتصالية في رواية التفكك لرشيد بوجدرة

د .عايدة حوشي
جامعة عبد الرحمن ميرة -بجاية-

يشكل النص بوصفه عنصرا تفاعليا يولد الحركية الاتصالية بين المرسل والمرسل إليه؛ مجموع ملفوظات منطوقة أو مكتوبة توضع للتحليل؛ إنه سلسلة وحدات متتابعة ومتضمَنة داخل نسيج لغوي لا يمكن عزله عن وظيفته الإيصالية. ناهيك عن كونه النموذج اللّغوي الإيصالي لما هو حادث[1]؛ أي إنه معطى أولي مفتوح على القراءة عن طريق مرسل إليه يفكك السنن في ضوء الطبقات الدلالية والأوصاف اللّسانية.

إن تموضع النّص على هذه الشاكلة ضمن مستواه الإيصالي، يجعل اللّسانيات قاعدة تمكنها من أن تصبح النموذج العام لكل سيميولوجيا، فاللّسان ليس سوى نسق خاص ضمن الأنساق السيميولوجية، ولأجله" فتحت أمام السيميائيات إمكانية الانفلات من دلالة الخطابات كأنساق للتواصل"[2]،

يعتبر دور المرسل(L'énonciateur) دورا هاما في عملية التواصل، فهو مُسنِّن الرسالة وواضع أنساقها البنائية[3]، وهو كذلك حدٌ لابد أن يُكتب بشكل واضح داخل علاقته النوعية (Hypéronimique) بالمتلفظ في حالة التواصل التشاركي (المتحقق أو المتجسد فعلا)، لأنّ "التفاعل موجود، ولكنّ درجته هي التي تختلف، فليس هناك خطاب أحادي الجانب موجهٌ إلى ذاته فإذا كان على المتكلم " أن ينتصر على خمول المتلقي وشروده وعلى المجرى المتشعب والعدواني لتفكيره"[4]؛ عليه أن "يعمل أكثر لكي يمرر رسالته"[5]، وفحوى هذا العمل هو أن يشغل نفسه في كتابته بالطريقة التي ستحلل من خلالها شفراتها أو سننها.

ضمن لعبة السرد ومجموع قيمها بتعبير غريماس، لابد أن نوضِّح وفقا للإقصاء المفترض الذي يجعل المرسل أحادي الجانب (Unilatérale) إشكاليةَ المرسل، لأنّ النّص: مرسلٌ أولٌ يوزع إرساليات على مرسلين ثانويين وفق بروز الضمائر الموجهة لطبيعة كل مرسل، لكن ضمن التحليل؛ فهو مرسل فردي يظهر إلى جانبه مرسلون آخرون يقومون بفعالية داخل الحوار والأدوار المناطة بهم، حيث قدّم غريماس بهذا الشأن نظرته حول

إشكـــال المرســـل (le problème du destinateur)، باعتباره مجزأ؛ أي يتولد داخل إطار عام هو: المرسل الأهم والذي وفقا لمتطلبات الحكي يوزع أدوار الإرسال تبعا للبنية القاعدية (la structure de base) التي توفر معطيات التحول وتوزيع الأدوار، أما فيما يخص السارد (Narrateur)، فقبل أن يسرد أي شيء، لابد له من امتلاك كفاءة السرد أي المعرفة بإرساليته وتحولاتها[6]. لأن التوجه الإرسالي يتعين ضمن سمات المرسل، ودرجاته التأطيرية التي تلفه سواء نحويا أم سيميائيا.

إن مفهوم تفكيك السنن الذي يعد – حسب ريفاتير- مهمة يقوم بها المرسل إليه؛ مفهوم قاعدي يستدعي منا الكشف عن عملية التشفير، أي حدود الشفرة التي تشكل قاعدة ينطلق منها المرسل إليه في عملية تواصلية، تكون انطلاقا ومعطيات صاحب النّص ذاتـــه من خـــلال بنية الرســالة، فالشفـــرة (Le code) في نظرية التواصل – كما يذهب إلى ذلك غريماس – هي جرد للرموز، متبوعة بمجموعة من القواعد لنظام الكلمات المشفرة، وغالبا ما تكون موضوعة بموازاة القاموس، نعني في شكلها اللّغوي العادي، بينما إذا كانت اصطناعية مشتقة فإنها تتجاوز القاموسية إلى مرحلة إيحائية، حيث نجد أسس معالجتها في ضوء تجزيئها إلى مجموعات من الرموز.

يرى أمبرتو إيكو أن "نظرية في الشفرات تُعنى ببنية الوظيفة الدلالية، وقواعد تأليفها؛ أي الإمكان العام للتشفير والاستشفار، ولذلك تصدر هذه العملية عن منظور تحليلي جزئي يصبح فيه ما تعودنا اعتباره شكلا عاديا جزءا آخر ... يكون فيه ما يُسمى أشياء المظهر السطحي الذي تتخذه شبكة ضمنية من الوحدات الأكثر أولية، وهذا ما يقصد به التوصل إلى المعنى العادي الموجود في العرف بقدر ما هو سمة تنتمي إلى عالم التجريد وإنتاجيات الدليل بوصفه مؤطرا ضمن إطار ثقافي هو الذي يوجّه المضامين"[7]، إلى جانب القيمة التي تصـــدر عن تركيـــب الشفـــرة ذاتهـــا خاصـــة القيمـــة التعارضيـــة la valeurs d'opposition[8]، ناهيك عن الحقول التي تفرضها الفئات التشفيرية سواء القوية منها أم الضعيفة، فالشفرة بوصفها لغة هي شبكة مركبة من شفرات دنيا (sous codes) مختلفة، بعضها ثابت مثل الإقران (Appariement dénotatif)، وأخرى ضعيفة زائلة مثل الإقران الإضافي (Ephémère) الذي يقع بعيدا عن المركز (Périphérique) [9].

والجدير بالذكر هنا هو أن تواجد الشفرة الدنيا يُوجِّه قوةً لها، خاصة إذا واجهنا بناءً خاصا للتشفير في النّص الذي نريد فك شفراته، فما بين فاعل

الملفوظ وفاعل الملفوظية نعلم أن مستوى السيمياء اللسانية في طابعها الأصلي ينتمي المتكلم فيها إلى النظام غير اللساني في إطار التواصل العام، فبوصفه باعثا أومرسلا للرسالة؛ هو فاعل داخل الخطاب اللساني، فإذا كانت ملفوظات الحالة تبرز جزءا هاما من البرنامج السردي "يمكن اعتبارها من خلال موقعها في الموضوعات (اتصال، انفصال) كمالكة للقيم...من هنا يمكن ذوات الحالة في وجودها السيميائي بكونها تمتلك مواصفات (صفات، نعوت)، فهي لا تتحدد كذوات إلا من خلال علاقاتها بموضوعات القيمة، وفي مشاركتها في عوالم أخلاقية متنوعة"[10]، أي إن علاقة الذات بالموضوع علاقة أساسية، إما بالتقاطع أو الاتحاد.

إنّ الأساس الفاعل بين هذه الذات والموضوع المصاحب لها، ينبني أساسا على الشيء المرغوب فيه أي تحقق (الرغبة)، وهذا ما عبرت عنه رواية التفكك رشيد بوجدرة وهو ما يمكن أن نجسّده عبر الشكل التالي :

الذات = الطاهر الغمري

1- اللارغبة في الانتماء = لم يكن ليحمل بطاقة تعريف.
2- التاريخ ≠ الواقع الإيجابي – اللاموضوعية(التاريخ مخرأة)
3- الجنس ≠ الإيجاب (الشذوذ)
4- الاجتماعية = التحول + سالمة (خروج جزئي من العزلة)
5- الانتقاد ≠ السلبية – العزلة في جانب سيء-الموضوعية في رؤية التاريخ
6- اللاشذوذ = الامتناع عن ممارسة العادة السرية

الملفت للانتباه داخل هذه التعلقات بين الذات والموضوع، هو تكرار موضوعين مرتين في كل مرة، اللاانتماء ثم الانتماء الجزئي الذي يعكس جانبين متناقضين (الرغبة/ اللارغبة)، إضافة إلى عالم الشذوذ، ثم الإقلاع عنه. أي إن مرحلتين اثنتين حققتا لنا هذا النوع من التواصل واللاتواصل ما بين الذات والموضوع عبر اللفظي وغير اللفظي(Verbal ou nom Verbal) من خلال ما يمكن للذات أن توجهه للموضوع، وذلك من خلال ملمحين تقابليين يمكن تمثيلهما عبر شكلين؛ الأول للذات (الطاهر الغمري)، والثاني للذات (سالمة):

سماع دون تلفظ

- ولا يرد عليهم (05).
- وأنت لا تقول شيئا عن رفاقك (22)
- لا أقول شيئا أتركها تتكلم (28).
- فلا يرد عليها (35).
- ولا يجيب أبدا (40).
- لا يرد عليها (53).
- يقطع المكالمة (90).
- لا يرد علي، كما أنه لا يجيبني (93).
- فلا أرد عليهم (235).

التحدث (التكلم)

- (كل ماهو متعلق بملفوظات الطاهر الغمري الغمري عبر كامل الرواية ومنه هذه
- النماذج
- من أنا؟ أين أنا؟ (14)
- تهزأ بي (43).
- ماتوا كلهم .....(63)
- صعدنا إلى الجبل أو صعد إلينا(63)

الصمت

- هو يقول في قرارة نفسه (27).
- يلزم الصمت دائما (92).
- وهو يقول في نفسه (35).
- ثم قطع المكالمة (56).
- صمت طويل (63).

سماع دون تلفظ

تبقى مذهولة لا تفوه بنفس ولا بتنهيدة (29).
وتبقى هكذا تنظر إلي وأنا أقرأ لها ليلاتي (157).
تركته يتكلم وأغمضت عيني (200).

التحدث (التكلم)

(كل ما هو متعلق بملفوظات سالمة عبر كامل الرواية، ومنه هذه النماذج:

- ماذا تريد الجنس (17)؟
- تسأل المعلمة عن ...(59)
- استمر هطول الأمطار(125).

الصمت

فيدب فيها الهدوء... (20).
تدهش وتصمت (29).
لا أتفوه بكلمة (41).
صمت يخيم علينا...(81).
كانت واجمة،، ساكنة ...(153).
أراها هادئة، نوع من الاطمئنان أسكينة هي؟ (157).
وهي لا ترد عليها (227).
أنا لا أصدق بها ولا أتحرك من مكاني(227).

يبرز لنا هذا التأرجح بين الملفوظات عبر النموذجين، طبيعة التلفظ في مقابل الصمت أو استقبال الملفوظات دون حديث إرجاعي للمتلفظ، وهذه حال من حالات محورة لغة الخطاب، لأن المساحة التي يشكلها الصمت باعتباره طابعا غير لفظي، تبرز إلى حد كبير ما يقابل الصمت ذاته من تمظهر لفظي داخل النص، لأن بلاغة الصمت في مقابل الكلام تؤدي وظيفة تفصيلية خاصة بفعل الإطالة فيه أو التقليل منه.

فالشكل الثلاثي في كل مراحله هو إبانة عن هذه السياسة التي انتهجها المتراسلون في نص "التفكك"، فصمتهم لم يكن عن جهل بالواقع ولا عن خوف من التواصل، بل عن حكمة وتأنٍ في إظهار الواقع تاريخا وحاضرا، أما إذا أردنا معرفة حالات هذه التقابلات حسب مقتضيات التلفظ بالسكوت عن المتلفظ، فإنها موجهة بفعل ضوابط قبلية وبعدية عبر الإطار الحكائي، حيث يمكن توضيحها بفضل هذا الشكل الذي تساهم فيه أفعال سالمة في توجيه حالات الموضوع الخاص بالطاهرالغمري وحياته:

قبل	ضد (VS)	بعد
-عاملا على محو ماضيه خائفا ...(6). - في رهبة العزلة (9) - يتقوقع على ذاته (9) -يبحث عن نفسه، ليست له بطاقة هوية(18) - لا يدري (72) - لا يبالي (72) - كنت تبكي وأسمعك (111). - البيت الكئيب (14-15). - أعرف أن بين قلبك حطاما (112). - ويضجر، ويسخط ويكفر ويبكي(148). - فقد شعور الحب منذ خمسة وثلاثين عاما بأكملها(194). - العزلة... (197).	- بداية تكلمه مع سالمة: -بنيتي، بنيتي، هل يستقيم الظل والعود أعوج(29). - الاندماج- يضحك بقهقهة (200). - البيت في صورة أنيقة(254). - أصل عزلته ترصد ما يقع تحت أنظاره من ظاهرات(279) - النظرة الموضوعية للتاريخ(279).	

مفترق الطرق

عينا الكآبة من جديد (200) ⇔ مؤقتا.
أجد نفسي في مفترق الطرق مرة أخرى (200) .
يترك ابتسامة خجولة تموت على فمه (200).

عبر كل هذه المراحل ظل موضوع طفولة الطاهر الغمري؛ الإقران الوحيد الذي لم يلحق به بوصفه ذاتا لها تعلقها بالطفولة(أما عن طفولته، وعن حياته الخاصة، فلم ينبس يوما ببنت شفة...(297)؛ أما عن سالمة المتعلقة بموضوع الطاهر الغمري، فإن العزلة غير واردة في نظام حياتها إذا قصدنا

العزلة في شكلها العام، لأنها تحب الانفراد، وهو ما لا يشكل عزلة حقيقية كتلك التي يعيشها الطاهر الغمري، أمّا ملفوظات الحالة الخاصة بها والتي تتعلق أكثر شيء بسلوكيات توجهها الاجتماعي، فقد حددتها المعطيات الموالية من خلال خط سير واحد، ذلك أنها لم تعش الاضطراب الذي يعيشه الطاهر الغمري إنما:

- تتعثر كأنها حلقة مفرغة (18).
- البكاء (105- 119- 178- 179- 180- 189).
- العزلة النفسية دون أن تقترن بعزلة اجتماعية: (أسدلت ستارها الداخلي)(105).
- الضياع، لم أعد أعرف لجسمي حدوده ومحيطاته وأطرافه(177).

الملاحظ أن الذي يكتنف هذه الحالات هو التضاد، فاللامبالاة نوع من إثبات الرأي المخالف في المجتمع، ومن خلال هذا التوجه يثبت المتلفظ أن مجال التواصل من هذا الجانب متعدد الأوجه يسعى إلى بلورة نظم مركبة من الدلالات المتضادة من خلال "التفكك" بين الحالات والأفعال، حيث يمكن أن نميز ضمنها توجه الطاهر الغمري الجنسي في ضوء العزلة واللاعزلة من خلال الشكل الموالي:

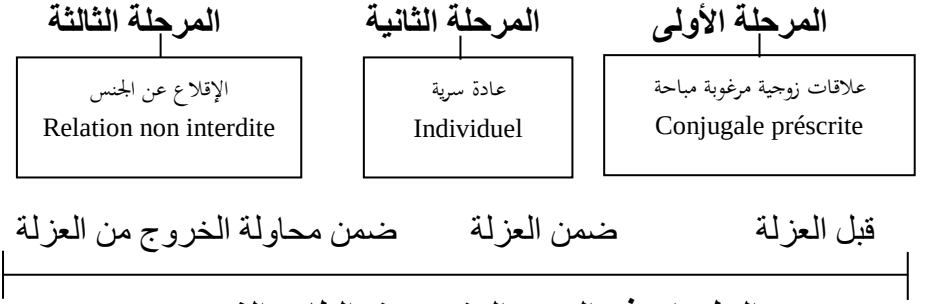

محور التطورات في التوجه الجنسي عند الطاهر الغمري

أما سالمة فضمن الإطار الفردي ذاته تمثل حالة مرضية مرغوب عنها(Non désirée)، سواء من الناحية الطبية أم عندها هي نفسها، فهي شاذة كذلك لأنها تحب أخاها.

-فأحدث عن الجنس، وعن السياسة، وعن حبي لأخي البكر وعن حتمية مجابهة المجتمع وعن تخلقه وأفكاره (174).

-ترهق نفسها، تعرق، تسيل، لكن دون جدوى أو فائدة...(189) .

وحتى لطيف إذا صنف من الناحية الجنسية تكون حاله محضورة (Interdite) إذا قسناها في إطار الرواية ككل، رغم كل ما قدمه من تحليلات نفسية تفيد شذوذه.

-يمارس الجنس مع الرجال، ويعشق الرجال، ويداوي النسوة (180).

فأفعال الحالة المصاحبة لكل هذه الملفوظات تعطينا تصنيفا من خلال الموضوع المقترن بها: حتى الأم في إطار شرعي تخرج عن الأطر المرغوب فيها حينا إلى ماهو مرغوب عنه.

-وهي على سجادتها لا تترك زوجها يقترب منها، وتنذر كل من يقوم به بعواقب وخيمة وتخاف أن يغتصبها(137).

أي إن اقتران الذات بالموضوع لا يتلاءم وجو تحقق الحالة التي يقرها السياق، وهذا التوجه في طرح الجنس بوصفه موضوعا مصاحبا لحالات الذوات قد جعل ملفوظات الفعل تظهر حسب التمثيلات الموالية:

- البكاء ≠ (تكف عن البكاء + تأخذها نوبة من الضحك (189).
- اللامبالاة ≠ الندم يغمرها تجاه الرجل المسكين (195).
- المقاطعة ≠ الرجوع مع الندم.

فعبر الإطار العام لهذه المحطات يبث المتلفظ موضوع الجنس في صورة غير طبيعية، سواء بين ذوي العلاقات الطبيعية "الزواج" أم في إطار فكري، والنموذج الذي يقترحه "غريماس" في هذه الحال هو نموذج اقتصادي اجتماعي خاص بالعلاقات الجنسية ضمن قيمها الاجتماعية[11]، علما أن معطيات المعنى عنده تؤخذ ضمن بعد قيمي تظهره جملة التعارضات البنائية لأن (الإلحاد ≠ الاعتقاد)؛ ورغم هذا نجد الجنس بوصفه مفهوما موارى مضر (Nuisible) إذا أخذنا الضرر في جانبه النفسي، فالمتلفظ يقرأ أن الطاهر الغمري عرف الإلحاد بعد أن كان مدرس قرآن؛ (أما أنت فألحدت (113).(منذ أن كان مدرس قرآن(12)؛ وبالتالي فموضوع الجنس هو: تحول فردي لا زوجي (Individuel non matrimonial) لأن توجهه شخصي وطبع خاص بالفرد[12]، سواء أأراد به التأقلم والمجتمع أم تجاوزه، وهذا ما يعكسه النموذج التمثيلي الموالي[13]

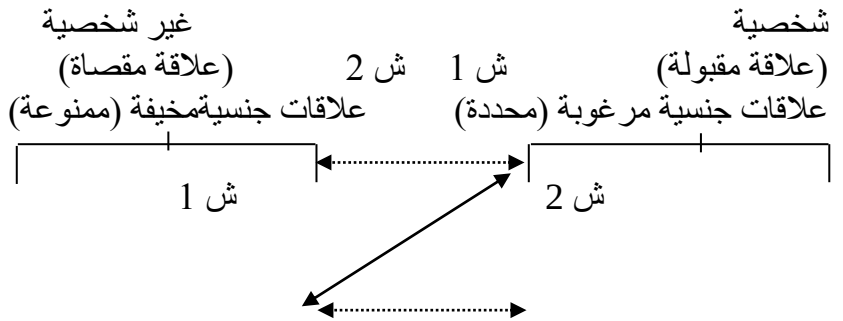

تبرز ملفوظات الفعل إذن كل ذات تقوم "بعملية التحولات التي تقوم بين الحالات، فالصيغة التالية: (ذ∩م، ذ∪م) يمكن قراءتها كحالتين متتاليتين للذات، لأنّ الذات على إثر ما تتنقل من حالة الاتصال مع موضوعها إلى حالة الانفصال عنه، لا يمكن فهم هذا التداخل الذي تحياه إلا إذا سلمنا بوجود فعل تحول"[14]، أي إن هناك مهمة تسند إلى ملفوظ الفعل ألا وهي حكمه على ملفوظ الحالة، لقد تعددت الأفعال المتحكمة في الملفوظات على مستوى الذوات: حيث شكلت الصورة فعل اتصال ثم انفصال في الوقت عينه؛(كل ماضيه (الصورة تنخر ضلوعه)(19)، (وفجأة يخرج الصورة ويدفع بها نحوها ثم يخرج...(36)، أمّا سالمة فقد عملت على انفصال الطاهر الغمري عن ماضيه ودفعه الحياة من جديد؛ (بحملك إياهم تقتلهم ثانية(108)، (عن العزلة صمت، ثم بنيتي، بنيتي...(29) بالواقع والمجتمع، التحول الحقيقي(199). في حين شكل المجتمع انفصالا تاما في الأفعال (يتقوقع على ذاته(9). أمّا سيد أحمد فقد حقق فعلي اتصال وانفصال معًا(لو كانوا يعلمون أني أعشق رجلا مات منذ خمسة وعشرين عاما لهربوا ولخافوا من أن تلحق بهم عدوي جنوني...(106). ليشكل الطاهر الغمري ولطيف معا أيضا: فعلي اتصال؛ (هكذا تحصلت على أخ جديد، وجاءتني مع لطيف واعترافاته بميوله الجنسية الخاصة، ومع عم الطاهر وتلفظه بتلك الجملة... فبدأت أشعر أن الأيام السابقة التهمت نصف حياتي وأضافت ألف عام على قدر عمري لحياتي(177). وهوما حقق كذلك بفعل سالمة مع أخيها فعلا اتصاليا هاما؛ (لقد بعث لطيف من جديد بكى في أحضاني...(179).

من خلال تجاوز التواضع المفترض بين حدود الإرساليات، نجد المرسل والمرسل إليه فاعلين ثابتين في السرد بمعزل عن أدوار الفاعلين في التواصل والذين يقبلون التقليد -لا سيما المرسل إليه-بوصفة مرسلا له معرفة بالنتيجة مسبقا، ويوضع داخل انتماء بالأفق السامي[15]، فإذا تموضعت خصوصية هذين الطرفين داخل البرنامج السردي، يكون هناك تشكل سيميائي آخر يبين المجادلة التي توضع فيها البنية السردية، من خلال حضور الفاعل من عدمه، أو خصوصية أخرى تفرض تواجدات وفق النص المبلغ ووالقنوات المتحكمة في توجيه الإرساليات.

قبل أن نلج التواصل المحقق ضمن هذه العلاقة، يميز "غريماس" في ضوء تحاليل النصوص السردية أنه يكون في بعض المرات ضروريا أن نميز المرسل فرديا، كما يظهر في حال الانتقام، وذالك بالتضاد مع المرسل الجماعي المطالب بتحقيق العدالة[16]، أين نجد نوعا من الفردية تحقق ضمن إطار لا يطالب بالعدالة بمفهومها المؤسساتي بقدر ما يهدر العدالة، من خلال الانفصال الاجتماعي، والتاريخي، وهروب من واقع لابد من مجابهته في المرحلة الأولى:

المرسل = الطاهر الغمري .

الانتقا م ⇩ مشكل وفق نظام نفسي :
- في رهبة العزلة (09).
- يتقوقع على ذاته (09).
- يلوم نفسه، الجنون(72)
- التاريخ(268).

فهذا النوع من الانتقام يبرز اللاانتماء، كما لا يهدف إلى تحقيق العدالة، بل قناته "اللامبالاة" أي قنوات الاتصال جميعا معطلة -على الأقل في هذه الفترة (المرحلة)-وحتى الانتقام من الزمن هو جانب نفسي حي داخل "الطاهر الغمري"، أردفه جانبا ماديا بإمساكه وثيقة تارخية هامة عن الناس هي (الصورة)، فسالمة قوام سيرورة وصيرورة هذه التوجيهات إذ تقول: (بحملك إياهم، تقتلهم ثانية (108). ولا تكسر هذه الفردية إلا عبر تطورات كثيرة، تساهم فبها إرساليات عديدة بين الطاهر الغمري وسالمة، يمكن توضيحها ضمن هذه العلاقات:

-**المرسل/اللامرسل إليه**: هي علاقة متوفرة أساسا بين المحيط الذي يوجد فيه الطاهر الغمري، والذي يشكل من خلاله مرسلا فرديا لا يحقق إرسالية تصل إلى مرسل إليه أي العزلة.

-**المرسل إليه/ اللامرسل**: لم يتصل الطاهر الغمري سالمة من خلال إرسالية دون أن يكون هو على علم بإرسال أي علامة تواصلية :

-كم من مرة، سمعتك وقد ظننتني بعيدة عنك(22).

-أما هو فلم يكن ليعرف حتى وجودها(15).

-**اللامرسل/ اللامرسل إليه**: قبل بداية التواصل بينهما، ما بين الإرساليات، حدوث الفتور (اللاتواصل). من : (لم أعد أتردد على دار الطاهر الغمري إنما أعطيه مهلة حتى ينتهي من نزوته الجنونية(172). -إلى: التردد وأمزق الرسالة العاشرة(179-180-181)-إلى: (وهنا تسترجع سالمة ثقتها في نفسها وفي الأخرين... تذهب هي إلى العرين...(187). وقد حدث هذا الاتصال بفعل اللاتوافق الفكري حيث: (-كانت العلاقة تتمتن بينهما، حتى ذالك العهد الذي جاء يفاجئها أن التاريخ، لا يصنعه أحد وكالعشب لا يزرعه أحد...(187).

لقد برزت هذه العلاقات على محور التضاد الذي "يستطيع الازدياد والإنتاج طبقا للمربع السيميائي مثل متضادات طرحين جديدين وعاملين"[17] رغم كونه ليس قانونا عاما، أما التواصل فقد تحقق عبر كامل الرواية انطلاقا من دخول سالمة العرين، ثم توقف قليلا ثم تجدد حتى بعد وفاة الطاهر الغمري، لأن تواصلها معه بقي عبر ذكرياتها معه إلى جانب مذكراته التي خلفها لها، ففعلا التواصل المحققين عبر رسالة الطاهر الغمري؛ "محفلان يقعان على المستوى الذهني للفعل، ولا يتحددان من خلال موقعها من حالتي البدء والنهاية كجزأين سرديين مؤطرين لمجموع التحولات المسجلة داخل النص السردي"[(18)]، لأنهما الباعثين على كل أحداث الرواية وعلى التواصل وفق قناة الزمن بين الماضي والحاضر من خلال التاريخ، ناهيك عن موقعه داخل الصيرورة الزمنية بوصفه حلقة من مجموع حلقات تربط الطاهر الغمري بسالمة التي تتبنى موقع المقاطعة لما تعرف موقف الطاهر الغمري من أن التاريخ مخرأة: (إذن أصغي إلي؛ التاريخ لايصنعه أحد، فهو كالطحلب، لا نعطيه أهمية إلا بعد مروره كالقاطرة التي تزج الفضاء ...(186). وهذا رغم أنه ظل:(يحاول حشو فجوة، التاريخ الهائلة (296)، أما سالمة فظلت هي الآخرى: (على يقين من أنه سيأتي يوم يقر برأيها لكنها حدست (163)، وتبعا لمحاولته المتكررة للحفاظ على تواصله معها و:(تأهبا منه للتراجع تدريجيا،

وبكل أناة في صدمها به في تحديد التاريخ(217). (بذل ما في استطاعته لإعطاء فكرة موضوعية عن التاريخ وبلورتها(279). فهناك تحول لهذا الموضوع بين مرحلتين :

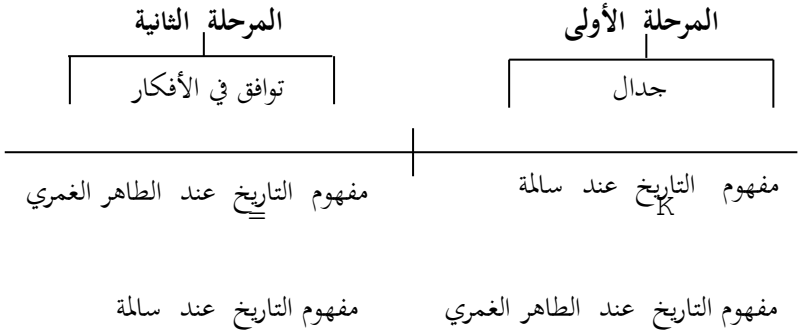

نستنتج عبر هذه التوجهات أن البطل دفع بفعل سالمة لتغيير نمط معيشي خاص، ونمط فكري خاص أيضا إلى ما يلائم واقع الحياة ككل، فصورة المرسل "لا يمكن حذفها أبدا من أي نص سردي"[19]، لأن حضورها يتخذ أشكالا متنوعة غير قابلة للتقليص في صورة أحادية، ويمكن القول إن تحقيقها يتم بطريقة بالغة التعقيد، "ففي عالم لم يعد يقبل بتقسيم الكائنات إلى مجموعة ممثله للخير، إلى أخرى ممثلة للشر[20]، حيث برز ت في النص مجموعة من المتضادات يمكن إدراجها كما يلي:

- الشارع ← تضاد ← سالمة: إذا بالغ أحد الأزلام أدوات وجهها(17).
- الأب ← تضاد ← سالمة: أما الأب فكان يكرهها(32).
- العمة فاطمة ← تضاد ← سالمة: وكنا نكرهها(84).

- الأم ← تضاد ← سالمة: ماذا يقول الجيران(120).
- حميد ← تضاد ← سالمة: الناس يقولون...أنت عاهرة !(130).

فالشارع لا يشكل محرضا على التواصل مع سالمة، ولا حتى ضمن (الأب) ومسار اللقاء مع ابنته، إذ تتوالى باقي النماذج دون أن يوجد تحريك فعلي من قبل المرسل، ولا تنفيذ من قبل المرسل إليه، الشيء الذي ينفي ركن التشارك بين هاتين الفئتين العاملتين؛ لأن محور الانتفاع غائب، كما أننا أمام بنية جدلية واضحة[21].

كل هذا لا يعيق استمرارية الحظ التواصلي "لسالمة"، لأنها على يقين أن أفكار المجتمع يلفها التعقيد[22]، ورغم هذا نجد -من كل ما سبق-أن المسار التواصلي أبان عن تحولات فعلية وجهها التطور في العلاقات بين المرسلين والمرسل إليهم، دون أن نضع جانبا طابع التواصل عند لطيف والذي يبرز من ناحية المجتمع:

المجتمع في غير كليته = توجه لطيف(موقف متعارض).
عشيقه جزء من المجتمع = توجه لطيف الجنسي من جانب واحد.
التوافق من جانب واحد (العشيق يعيش مع زوجته ومع لطيف)

وهذا ما يبرزه هو نفسه:

-وهل أصارحك، بأنني مسخرة الناس(174).
-لكننا معقدون، والرجل الخنثى بدعة وشذوذ لا يقدر المجتمع الذي نعيش فيه على استيعابه...(180) .

فهناك تبرير لنوعية اللاتواصل وفق إيديولوجية خاصة جدا، لأن الملفوظ السردي لا يتناول عبر المسار أو النموذج وحسب، بل كذلك وفق إطار سياقي خارجي تتطلبه طبيعة الفعل الموجه، فالتأطير الأخلاقي داخل "التفكك" يلفه جانب كبير من التعقيد نظرا للمعطيات الموالية:

- الطاهر الغمري (مدرس قرآن)(115).
- سجادة الصلاة التي لا تبرحها الأم (19).
- الآيات القرآنية المستشهد بها(115).

فالمعطى المحتمل داخل هذه البنية لا يتفق إطلاقا وما ينتظره المرسل :

- سالمة ← نظرتها الإباحية .
- الطاهر الغمري ← العادة السرية (قبل الإقلاع عنها)
- الأم ← الإقلاع عن معاشرة زوجها.
- لطيف ← الشذوذ الجنسي.

الشيء الذي يجعل من التواصل إغراءً يستحوذ على اهتمام المرسل إليه، إذ لا يتوقف المرسل عند هذا الحد بل يجعل من معظم تعاليم المعتقد الإسلامي تظهر في شكل ليسه الذي ينتظره المرسل إليه إذا كان تابعا لهذه الملة:

-وقد اخترقت العادة هذه المرة أيضا صمدت أمام القبار، الذي مضى يهدد بعدم دفن الميت ما لم تغادر هي المقبرة، إذ المقبرة ممنوعة على النساء عند الدفن، صمدت بعناد وما كان من لطيف إلا أن اضطر إلى شراء اتفاق القبار بمائة دينار...(177 – 178).

فالمرسل لف الجو العام الذي يفترض أن يكون عكس ما هو عليه، بتفكير يتعارض معه كلية، إلا من ناحية كونه كتب نصا بلغة عربية، حتى إذا ختمنا توجهه هذا لا نلفه إلا تشويها للمعتقد :

- يقول: "خلق الإنسان من قلق وكلك" ثم يشرب (68).

- قالوا: أن الآخرة، قد آن أوانها، وأن الله عيل صبره، ولم يطق أكثر تأن...(125).

و هنا يمكن أن نتساءل: "هل فكر رشيد بوجدرة في أن اختلاف لغة عن لغة أخرى لا يعني اختلافا في التعبير فحسب بل هو يعني أيضا اختلافا في التفكير"[23]، لأن "التفكك" مساحة يلتقي فيها التواصل مع اللاتواصل والمفترض مع اللامفترض و"مهما كان نوع الجنس الأدبي، فإن التفاعل موجود، ولكن درجته هي التي تختلف، فليس هناك خطاب أحادي الجانب موجه إلى ذاته"[24]. وهذا بدوره يقودنا إلى القول: إن التفكك في حد ذاته إجراء مس الملفوظات الخاصة بالمتلفظ الأول، في محاولة منه للفت الانتباه إلى ماقد يظهر بسيطا لا إحاليا أو ثانويا، فالتفكك بقدر ما يشوش على المتلفظ له هو إقحام من نوع خاص للاستقبال الجيد، فالتقنيات التي ربطت أجزاء نص "رشيد بوجدرة"؛ "حولت رواية التفكك من مشروع فني إلى مشروع لغوي خطط له مهندس أديب نبغ تفكيره من تجربة فنية ماضية، ولهذا فإن قارئ "التفكك" يشعر وكأنه يقرأ **رواية مترجمة** ولا أدلّ على ما ندّعي من اضطراب بنائها، وتواتر الأقواس الشارحة، والجمل الاعتراضية، والرموز، والأفكار المستوردة، فالتقنيات التي ربطت تراكيبها وصيغها جعلت منها نسيجا مفككا غير مألوف، لا ينسجم وما ألفه القارئ العربي"[25]. فقد فرض هذا النص بأسلوب رشيد بوجدرة في اللغة العربية رقيا في اللغة التي لم يشأ أن يثبت التواصل من خلالها ، بل هدف إلى اللاتواصل عبر كل التفكك الذي عاناه أسلوب الرواية، وإن حدث وكان الأسلوب فوضويا فإنه قد قادنا إلى إبراز

وظيفة التواصل على صعوبتها. ولعله الأمر الذي سعى رشيد بوجدرة جاهدا إلى تحقيقه في كتابته باللغة العربية. من خلال الاستكانة إلى الأسلوب الذي يفرض على النص خصوصية اللغة والإديولوجيا اللتان كتب بهما، بغية الوصول إلى إثباتهما عبر السياقات الأسلوبية غير المتوقعة. حيث لا يمكن أن يتوقف النص عند هذه الوظيفة بل عليه أن يتعداها إلى باقي الوظائف (المرجعية/ الانفعالية/ الأسلوبية/ الماوراء لسانية/ وحتى الأيقونية... بكل ما يمكن أن تضيفه إلى النصوص.

الإحالات

1 – خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس. نظرية اللّغة الأدبية. تر حامد أبو حمد غريب. ط1 .1988 ص .248.

2 – المرجع نفسه. ص: 15.

3 – ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني. تر وتق وتع: حميد لحمداني. منشورات سال. ط1، مارس/1993. ص : 24

4 – المرجع نفسه. ص: 19.

5 – المرجع نفسه. ص: 19.

6 - A. J. Greimas. Du sens Essais sémiotiques. Ed du seuil. Coll. Poétique. Paris. 1972 P : 261

7 - مايكل ريفاتير، دلائليات الشعر، تر: محمد معتصم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، ص: LXIV (التوطئة).

8 –Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage P : 334.

9 - La structure absente. P : 111.

10 – أ.ج. غريماس. السيميائيات السردية. سعيد بنكراد، طرائق تحليل السرد الأدبي، مطبعة المعارف الجديدة ط1 ، الرباط 1992 ص: 190.

11–A. J. G. Du sens, essais sémiotiques. P : 14

12- Ibid. p : 145

13- Ibid. P . 146

14 – أج. غريماس، السيميائيات، سعيد بنكراد، طرائق تحليل السرد الأدبي. ص : 190

15- A. J. G. et J. C. Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p : 94 - 95

16- Ibid. p : 95

17- Ibid . p : 95

18 - سعيد بن كراد. مدخل إلى السيميائيات السردية. ص : 51.

19 – المرجع نفسه. ص :51.

20 – المرجع نفسه. ص:51.

21 - Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage. p : 95.

22 - ينظر الصفحة 174 من الرواية.

23 - شايف عكاشة. مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية. قراءة مفتحية، منهج تطبيقي. ديوان المطبوعات الجامعية 1990. ص: 27.

24 – محمد مفتاح. دينامية النص. ص: 41.

25 – مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية. قراءة مفتاحية. منهج تطبيقي. ص:27.